الفكر العربى المعاصر

اتجاهه وخصائصه

للدكتور زكى نجيب محمود

— ١ —

ليس كل ما يكتب بالعربية فكراً عربياً ؛ فالفكر لا تتحدد قوميته باللغة التى كتب بها ، بل ينتسب إلى قومية منتجه ، كائنة ما كانت اللغة التى استخدمها ذلك المنتج فى التعبير عن فكره ؛ فلو نقلنا إلى اللسان العربى شيكسبير من انجليزيته ، أو راسين من فرنسيته ، فلا يصبح الأدب المنقول أدباً عربياً بسبب الثوب العربى الذى ألبسناه إياه ، كما لا يصبح الرجل من الإنجليز أو من الفرنسيين أعرابياً إذا ما لبس العباءة العربية .

لقد نظم طاغور بعض شعره بالإنجليزية ، لكن هذا الشعر يضاف إلى الأدب الهندى رغم لغته ، لأن القلب الشاعر هندى يشعر بما يشعر به الهنود ؛ على أنه يجوز أن نستثنى من هذا التعميم ، الكاتب الذى ينشأ فى وطن غير وطنه فيصبح وكأنه من أبناء هذا الوطن الجديد ، ويندمج مع أهله فى أفكارهم ومشاعرهم ؛ ومن أمثلة ذلك « كنراد » البولندى الذى كتب قصصه بالإنجليزية بعد أن نشأ وتربى بين الإنجليز ، فجاء أدبه فصلا من تاريخ الأدب الإنجليزى ولذلك أيضاً أمثلة كثيرة لرجال من الفرس كتبوا ما كتبوه باللغة العربية ، وجاءت كتابتهم جزءاً من الفكر العربى ، لتأصل الروح العربية فى نفوسهم .

فلا مندوحة لنا — إذ نتناول بالتحليل فكرنا العربى المعاصر — عن اطراح ما نقلناه من اللغات الأجنبية على اختلافها ، لا فرق فى ذلك بين قديمها وحديثها ، ولا بين ترجمة كاملة وتلخيص ، لكى نحصر أنظارنا فيما هو فكر عربى خالص .

ثم لا يكون هذا الفكر العربى الخالص الذى نخلص إليه بعد تنحية الفكر المنقول فكراً معاصراً ، إلا إذا كان أصحابه الذين أنشأوه وأنتجوه من أبناء الجيلين أو الثلاثة الأجيال الأخيرة — وهى الأجيال التى يمكن أن نتفق على أنها تحدد معنى المعاصرة — بحيث يجوز لنا أن نطلق لفظ « الفكر العربى المعاصر » على ما أنتجه أبناء الدول العربية فى الثلث الأخير من القرن الماضى وفى هذا النصف المنقضى من القرن الحاضر ؛ ولا مندوحة لنا مرة أخرى عن اطراح الكتب التى نشرناها فى هذه الفترة من تراثنا القديم ، والتى ليس لنا من فضل إلا فضل بعثها ، وهو كفضل الذى يخرج من جوف الأرض آثار آبائه الأقدمين — نعم إن الكشف كشفه ، لكن فضل الكشف عن الآثار لا يجعلها من صنع يديه ؛ فله إن شاء أن يفخر بمجد آبائه على ألا ينسى أن مجده هو من ذلك كله لا يكون إلا لنسبته إلى هؤلاء الآباء .

نريد — إذن — أن نبعد عن أنظارنا ونحن بصدد البحث فى الفكر العربى المعاصر ، كل منقول عن لغة أجنبية ، لأنه ليس فكراً عربياً ، وكل قديم منشور ، لأنه ليس فكراً معاصراً ، لنرى بعد ذلك ماذا يبقى بين أيدينا مما أنتجناه إنتاجاً مبتكراً أصيلا ؛ فقد يسهل علينا عندئذ أن نتعقب اتجاهنا الفكرى ، وأن نلمح الخصائص التى تميز فكرنا .

لكن أين عسانا واجدون هذا الفكر الذى نريد أن نضعه موضع البحث والتحليل ؟ إن الفكر لا يكون هواء سابحاً فى الفضاء ؛ بل هو شىء مدون فى الكتب والصحف ؛ فاذا أردنا جمع الفكر العربى المعاصر ، فعلينا بما أخرجته المطابع خلال الفترة التى حددناها ، مما كتبه أبناء البلاد العربية عن ابتكار وأصالة ؛ غير أن المطابع العربية قد أخرجت خلال الثمانين عاماً التى ذكرناها ، ألوف الكتب وعشرات الألوف من المجلات والصحف ؛ وإنه ليتعذر علينا — بل قد يستحيل — أن نغربل هذا الإنتاج كله لنميز بين ما هو أصيل وما هو دخيل ؛ ولذلك فحسبنا إنتاج طائفة قليلة من قادة الفكر ، الذين أجمع الرأى على أنهم فينا صفوة ممتازة ؛ فان وجدنا هؤلاء فى جملتهم يتجهون وجهة معينة ، ويتسم تفكيرهم بسمات مميزة كانت لنا بذلك النتيجة المنشودة .

— ٢ —

هأنذا أضع أمامى طائفة من الأسماء التى لمعت فى مجالنا الفكرى إبان الفترة التى حددناها ، وأحاول أن أستخرج ما بينها — أو ما بين أكثرها — من عناصر مشتركة ؛ فأول ما يستوقف النظر فى إنتاجهم ، جهاد متصل فى سبيل الحرية ، لكنه جهاد تختلف ألوانه فيما بينهم ؛ فكثرتهم تدعو دعوة صريحة إلى الحرية السياسية من المستعمر الأجنبى أو من المستبد الداخلى ؛ حتى لتجد نفراً منهم قد وصلوا أنفسهم بالأحزاب السياسية صلة جعلتهم يرتفعون بارتفاعها وينخفضون بانخفاضها ، بل إن منهم من أوغل فى هذه الصلة بالأحزاب السياسية إيغالا حتى تبوأ من حزبه مكان الرئاسة .

استنفذ الجهاد السياسى شطراً كبيراً من جهدنا الفكرى ، فانطبع تفكيرنا — إلى حد ما — بالطابع الذى اقتضاه العراك الحزبى فى ميدان السياسة ، وهو أن يكون أصحاب الأقلام على وعى تام بتفصيلات الحوادث التى تتصل بقضايانا السياسية — الداخلية والخارجية — وأن يرهفوا قدراتهم الجدلية ، بحيث يستطيع الكاتب أن يقرأ مقالة خصمه اليوم ليرد عليها غداً ؛ فلا عجب أن يتسم تفكيرنا بقصر المدى وسرعة الإنتاج ، وارتبط بالصحافة ارتباطاً وثيقاً ، فجاءه من هذا الارتباط بالصحافة الخير مرة والشر ألف مرة ، وسنرجىء الحديث فى هذا لنعود إليه بعد قليل .

أقول إن الدعوة إلى الحرية طابع يميز الفكر العربى المعاصر ، وإن هذه الدعوة قد جاءت صريحة من الأقلام التى نهض أصحابها بخدمة الأحزاب السياسية وأقول « خدمة الأحزاب السياسية » وأعنى ما أقول بمدلوله الحرفى ؛ لأن الأحزاب السياسية جاءت أولا ، ثم نهضت أقلام المفكرين للدفاع عنهـــا بعد ذلك ؛ فلم يكن المفكرون هم الذين أنشـــأوا الاتجاهات السياسية كما كان ينبغى أن يكون . . حدث ذلك — مثلا — فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ، فظهر روسو وفولتير وديدرو ومن إليهم ، وخلقوا الجو الفكرى الذى شق للسياسة طريقها حتى كانت الثورة الفرنسية وما بعدها ؛ وحدث ذلك فى انجلترا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، حين جعل الكتاب يكتبون فى الاشتراكية قبل

أن تكون الاشتراكية حزباً سياسياً ، حتى إذا ما خلق الحزب السياسى ونهض على قدميه ، لم تعد ترى أئمة الفكر عندهم يلحقون به كما يلحق التابع بمتبوعه والخادم بسيده . . . وفى رأيى أن انعكاس الوضع عندنا فى البلاد العربية له مغزاه وهو أن شعلة الحرية قد أضاءها رجال العمل لا رجال الفكر ؛ ومن هنا جاء ما كتبه المفكرون فى الحرية السياسية مقالات حزبية صحفية تسير وراء الحوادث اليومية ، ولم يظهر بيننا المفكر الذى يكتب فيها رسالة لها نصيب من عمق أو اتساع ، كما فعل مفكرو الغرب حين شقوا الطريق برسائلهم فى الحرية السياسية لما قام بعدهم من أحزاب سياسية تكونت فى ضوء تعاليمهم وآرائهم .

على أن الدعوة إلى الحرية السياسية لم تكن كل شىء ، إذ ظهرت دعوات أخرى إلى حريات أخرى ، وها هنا نجد لمفكرينا فضلا فى الابتكار والإبداع ؛ فلئن فات قادة الفكر منا أن يمسكوا بزمام الدعوة إلى الحرية السياسية ، بأن تركوا هذا الزمام فى أيدى الساسة واكتفوا هم بالسير فى مواكب الأحزاب ، فهم فى سائر أنواع الحرية أئمة ورواد ؛ ولنا فى ذلك عزاء أى عزاء ، إذا علمنا أن هذه الحريات الأخرى أبقى أثراً وأدوم حياة .

لقد شغلتنا المطالبة بالحرية السياسية حتى أوشكنا أن نفهم « الحرية » بهذا المعنى وحده ، لولا جهود موفقة لقادة الفكر عندنا ، علمتنا أن الحرية تكون فى التعبير عن الرأى تعبيراً لا تقيده القيود ؛ قل الرأى الذى تراه ، وقله مخلصاً صادقاً ، واحتمل فى سبيله صنوف الأذى التى ربما نزلت بك نتيجة إعلانك لرأيك ، تكن نصيراً للحرية أكبر نصير ، مهما يكن نوع ذلك الرأى ، ولو لم تذكر كلمة « الحرية » أبداً من أول المعركة إلى آخرها . . . ولا شك أن كثيرين من قادة الفكر العربى المعاصر ، قد وقفوا دون آرائهم وقفات عنيدة فكانوا بذلك دعاة للحرية بمعناها الصحيح .

إننا إذ نقول إن الدعوة إلى الحرية سمة تميز فكرنا العربى المعاصر ، نضع فى اعتبارنا مظاهر قد تبدو تافهة إذا أخذت فرادى ، لكنها هى القطرات التى يتكون منها التيار الدافق ؛ فاذا رأيت الشعراء يجاهدون فى تحطيم التقاليد الشعرية الموروثة ما استطاعوا إلى تحطيمها من سبيل ، وإذا رأيت ألواناً جديدة تخلق

فى أدبنا خلقاً من العدم أو شبهه ، كالقصة والمسرحية ، وإذا رأيت البائع فى الطريق يحاول أن يحدد حقوقه إزاء الشرطى الذى يمثل الحكومة ، والشاب الناشىء يريد أن يثبت شخصيته أمام أبيه أو معلمه ، والزوجة تجاهد فى اكتساب حقها كاملا فى محيط الأسرة . . . إذا رأيت هذا كله ممثلا فيما ينشره المفكرون بيننا ، فاعلم أنه تيار فكرى واحد يدفعنا نحو الحرية ونحو الكرامة الإنسانية ، مهما تعددت ألوانه فيما أنتجه هؤلاء المفكرون .

— ٣ —

وأعود فأنظر إلى إنتاج هذه الصفوة الممتازة من مفكرينا خلال الفترة التى حددناها فألحظ إلى جانب جهادهم فى سبيل الحرية بشتى ألوانها ، ميلا قوياً ظاهراً نحو « التعقيل » — أعنى نحو أن يقيموا النهضة العربية الحديثة على أساس من منطق العقل ، بدل أن يركنوا إلى عاطفة القلب وحدها ؛ وذلك اتجاه — بغير شك — نحو ما هو خير وأفضل .

وقد كان لهذا « التعقيل » وجهان : الأول اغتراف من المدنية الأوروبية والثانى مجهود جبار نحو إعادة التراث العربى القديم مصحوباً بدفاع عقلى يحاول أن يبرر له مكاناً من ثقافة العصر الحاضر وفكره .

لقد قدمت لهذا البحث بمقدمة أقول فيها بوجوب استبعاد الفكر المنقول ترجمة أو تلخيصاً ، واستبعاد الفكر المنشور من التراث القديم ، لكى نخلص إلى ما هو فكر عربى معاصر ، فنتبين خصائصه على ضوء التحليل الصحيح ؛ فاذا ما عدت الآن أذكر اغترافنا من المدنية الأوروبية وإعادة تراثنا العربى القديم على أنهما وجهان لحركة « التعقيل » التى تميز اتجاهنا الفكرى المعاصر ، فانما أذكرهما لما نشأ عنهما من « اتجاه » الأنظار نحو وجهة معينة ، لا لخصوصهما الفكرى فى ذاته ؛ وذلك شبيه بمن يدير جسدك نحو الشمال — مثلا — ثم يتركك فتمشى فى هذا الاتجاه الجديد من تلقاء نفسك ، وبالخطى التى تستطيعها قدماك وساقاك .

فلما كان أوضح جوانب المدنية الغربية اليوم هو إنتاجها العلمى — من حيث النظريات العلمية وتطبيقها تطبيقاً عملياً على السواء — كان من الطبيعى

أن يؤدى اتصالنا بتلك المدنية وأهلها — اتصالا مباشراً أخذ يتزايد زيادة مطردة فى القرن الأخير — إلى نقل كثير من علومهم ، وإلى اصطباغ التعليم عندنا بتلك الصبغة العلمية إلى الحد الذى استطعناه : نقلنا عنهم علوم الطب والهندسة والرياضة والطبيعة والنفس والاجتماع والاقتصاد وغيرها ، وفوق هذا كله نقلنا عنهم المنهج العلمى ذاته وأخذنا نطبقه فى ميادين جديدة عندنا — إلى هنا نحن ناقلون لفكر غيرنا ، لكن أنظارنا قد اتجهت بهذا النقل وجهة جديدة ، وهى أن ننظر إلى شتى أمورنا الإصلاحية الهامة نظرة عقلية علمية ، فكانت هذه الوجهة الجديدة بغير شك طابعاً يميز فكرنا المعاصر .

فها هو ذا — مثلا — مفكر من طليعة رجال الفكر المعاصر عندنا ، يكتب كتاباً فى الشعر العربى القديم ، فيقدم له بمقدمة طويلة يزعم فيها أن البحث الأدبى القويم ينبغى أن يقام على المنهج الديكارتى فى التشكك وبلوغ اليقين ؛ وهذا إمام فكرى آخر ، يفسر القرآن أو جزءاً منه تفسيراً يراعى فيه أن تظهر أحكامه للناس متسقة مع العقل العلمى الحديث ، وهكذا وهكذا . . وإنك لتقرأ مئات المقالات التى يكتبها قادة الأدب عندنا ، فتراهم جميعاً يصدرون عن رغبة أكيدة شديدة فى أن نلقى بزمامنا فى كل أمورنا الاجتماعية إلى منطق العقل دون اندفاع العاطفة .

على أن ذلك ليس شيئاً مذكوراً فى حركة « التعقيل » ، بالقياس إلى موجة آخذة فى الاتساع والقوة ، تميل بنا نحو اطراح الارتجال فى تناولنا للأمور العامة كلها ، فترانا اليوم فى أغلب الميادين الفكرية والعملية على السواء ، أميل إلى الأخذ بالمنهج العلمى فى شئون الإصلاح ؛ فهنالك تجارب فى الزراعة وتجارب فى التعليم ، وهناك إحصاءات رسمية تنبنى عليها أحكامنا فى شئون الصناعة والتجارة وغيرهما ، على أننا بطبيعة الحال لا نزال فى أول الشوط ، ولا يزال حكم العاطفة يعاودنا آناً بعد آن ؛ لكننا مع ذلك لا نخطىء إذا زعمنا ما زعمناه من أن محاولة الركون إلى أحكام العقل سمة أخذت أخيراً تظهر فى تفكيرنا ، وهى فى طريقها إلى أن تكون طابعاً مميزاً للفكر العربى المعاصر .

ذلك كله يقال فى الأثر الذى تركته فينا حركة النقل عن المدنية الغربية ؛

وبقى أن نرى كيف يظهر طابع « التعقيل » فى نشرنا للتراث العربى القديم : إن فتح النوافذ والأبواب أمام المدنية الغربية لم يصادف هوى عند طائفة من الناس بالقليلة الشأن أو العدد ؛ فبين ظهرانينا فريق كبير جداً كان يتمنى بحكم تربيته ونشأته أن يكون نهوضنا كله نمواً من الداخل ورجوعاً إلى الماضى ؛ فلما رأوا بأعينهم أن تيار الحضارة الغربية العلمية جارف يمس أوضاع الحياة كلها ، لم يروا بدأ من النشاط والحركة فى اتجاههم وهو الجرى إلى الوراء لاستخراج كنوز الماضى لعلهم يجابهون بها الغرب الدخيل ؛ لكنهم لم يقتصروا فى هذا على مجرد نشر القديم نشراً مزوداً بالشرح والتعليق — وحركة هذا النشر الآن على أشدها — بل أضافوا إلى ذلك « تعقيل » هذا التراث ما استطاعوا إلى ذلك من سبيل ؛ وأقصد بالتعقيل هنا صياغة القديم صياغة جديدة ، لعله يبدو متسقاً مع أوضاع المدنية العلمية الحديثة ؛ وإن شئت فانظر كم من طليعة المفكرين اليوم قد شغل نفسه بعرض جديد لأعلام الإسلام وحوادثه البارزة ، وانظر كم منهم قد اتجه بقلمه إلى شرح القديم والتعليق عليه ، شرحاً وتعليقاً يقصدان إلى عقل القارىء الحديث بنزعته العلمية وميوله العقلية ؛ ولسنا بحاجة إلى القول بأن التطور الذى أصاب نظام التعليم فى الأزهر والمعاهد الدينية بإضافة المواد « الحديثة » إلى برامجها ، هو باب من أبواب « التعقيل » الذى سار فى هذا الاتجاه الثانى .

فلئن كان فكرنا العربى الحديث يتسم بطابع « العقل » الذى يحاول كبح جماح العاطفة فى شتى ألوانها ، إلا أن هذا الطابع نفسه يتفرع فرعين — كما أسلفنا — ففرع منهما يبث فى نهضتنا الفكرية « عقلا » خلال ما ينشره من العلوم المنقولة من الغرب ، وفرع آخر يفعل الفعل نفسه بوسيلة أخرى ، هى عرض البضاعة القديمة فى ضوء جديد « معقول » ؛ ومن ثم كان هذا الصراع الفكرى العجيب عندنا ؛ إنه صراع بين الجديد والقديم ، لكنى أراه يختلف عن كل صراع من نوعه ، لأن الفريقين لا يختلفان على المعيار الذى تقاس به الأمور ، فكلاهما يحتكم إلى منطق العقل ، وكلاهما يحاول أن يبين أنه إلى ذلك المنطق أدنى من خصومه ؛ ولو سمحت لنفسى بإبداء رأى شخصى هنا ،

لقلت إن الفريق الأول يصدر عن منطق أسلم وأصدق ، فموقفهم يخلو من التناقض الذى يعيب موقف الآخرين ، وموضع التناقض عند هؤلاء الآخرين هو أنهم يأخذون بالأساس نظرياً — أعنى أساس العقل فى الحكم على الأشياء — ثم يجفلون مما يترتب على ذلك من نتائج .

— ٤ —

قلنا فيما أسلفناه من حديث ، إن الدعوة إلى الحرية طابع يميز فكرنا المعاصر ، ثم أضفنا إلى ذلك أن الحرية السياسية بوجه خاص ، تستنفذ الشطر الأعظم من مجهود المفكرين ، وأن رجال الفكر فى هذا الميدان — لسوء الحظ — ليسوا ذوى أصالة ، لأن الزمام فى أيدى الساسة وهم لهؤلاء تابعون ، فنشأ عن ذلك أن باتت الصحف اليومية أوسع ميدان لأقلامهم ، ومن هنا تأثرت الحركة الفكرية المعاصرة بالصحافة أبلغ الأثر وأعمقه ؛ وقد ذكرنا فيما مضى أن الصحافة قد عادت على حركتنا الفكرية بالخير مرة وبالشر ألف مرة ، وهاهنا نعود إلى شىء من التفصيل .

أما الخير الذى أصابه الفكر من الصحافة ، فأهمه سهولة تدريب الكاتب على بلورة أفكاره ، فلو كان كل كاتب ناشىء لابد أن ينتظر حتى يفرغ من تأليف كتاب بأكمله ، لكان الأرجح أن ينثنى كثير من الكتاب عن الكتابة والتفكير ؛ وكذلك كان للصحافة إلى جانب ذلك فضل آخر على الحركة الفكرية المعاصرة ، وهو أنها عملت على ليونة الأسلوب وسهولته وانسيابه وسلاسته ليتمشى مع مقتضيات الحوادث اليومية ؛ وهذا ولا شك كسب عظيم ، لأن الأسلوب الذى لا تكلف فيه علامة على صدق التعبير ، والصدق فى التعبير عن الرأى هو بدوره علامة قوية على الحرية التى ننشدها .

وأما شر الصحافة على فكرنا المعاصر فهو مستطير جسيم ، لأنها طبعت الفكر العربى المعاصر بالسطحية والتفاهة وقلة النضوج ؛ فهذه هى الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية تفتح صفحاتها لأقلام الكتاب كلما أشرقت الشمس مع الصباح أو غربت مع المساء ، وهؤلاء هم الكتاب المفكرون يسرعون كل يوم إلى مكاتبهم يلقفون نتفة من هنا ونتفة من هناك لتكون لهم مقالة

فى هذه الجريدة أو تلك . . . فكاتب من ألف كاتب هو الذى يصم أذنيه عن نداء الصحف السيارة ، ليهدأ إلى مكتبه عامين أو أكثر ، حتى ينضج كتاباً كاملا فى موضوع ؛ إن الثمرة الطيبة بحاجة إلى زمن حتى تنضج ، ولا بد أن تكون طوال هذا الزمن فى مأمن من الزعازع والأعاصير ومن المطر والحشر ، لكن الصحافة عندنا قد جن جنونها فأطاحت بعقول المفكرين معها فى سرعة دورانها .

إننى لا أقصر القول هنا على الإنتاج الأدبى وحده ، بل إنه ليشمل أبحاثنا العلمية ومشروعاتنا الإصلاحية كذلك ؛ فكم من باحث علمى لا يجد فى نفسه الأناة التى تدعوه إلى التمهل والروية والتثبت ، لأنه أمام صحافة مستعدة لنشر بحثه ممهوراً باسمه ، فسرعان ما يزيغ بصره ، فيضحى بالأمانة العلمية فى سبيل النشر السريع والشهرة العاجلة ؛ وكم من رجل مسئول من رجال الدولة ، لا يتأنى بمشروعه الذى قد يكلف الخزانة ملايين الجنيهات ، لأنه يخشى أن تفوته فرصة النشر السريع .

حب للحرية والتسامح وسعة الأفق ، وترجيح لأحكام العقل أو محاولة ذلك ، ثم سطحية دعت إليها الصحف . . تلك هى السمات البارزة التى تطبع الفكر العربى المعاصر .

زكى نجيب محمود